

اعتناق الأوروبيين الإسلام في مدينة تونس في العهد الحفصي

د. منير رويس

المعهد العالي لأصول الدين بتونس.

المجتمع الحفصي مجتمع مسلم بالأساس عاشت بين ظهرانيه جماعة مسيحية ويهودية نعمت طوال تاريخها بالسلم والأمان. وشاعت مجموعة من المسيحيين واليهود التحول عن دينها واعتناق الدين الإسلامي عن طوعية وبكل جرأة، فاشتهرت عبر التاريخ وذاكرتها المصادر والمراجع التاريخية.

وإننا في هذا المجال سنتعرف على خصائص المجموعة الصغيرة التي اعتنقت الإسلام في مدينة تونس عاصمة الحفصيين وسنبرز منها شخصيتين مهمتين تاريخياً هما الأميرة عطف أم المستنصر بالله الحفصي، والكاتب المفكر عبد الله الترجمان وكلاهما مسيحي أعلن إسلامه وخلد التاريخ ذكراه.

1) مجتمع مدينة تونس خلال العهد الحفصي :

قبل التطرق إلى خصائص معتقي الإسلام في مدينة تونس لا بد من التعرف على واقع هذه المدينة عاصمة الحفصيين. فقد امتد حكم الحفصيين

طويلا وتواصل من سنة 634هـ/1236م إلى سنة 982هـ/1574م، وبقيت تونس طوال هذه الحقبة عاصمة الدولة بدون انقطاع وشهدت تطورا في مختلف الميادين وأضحت قطبا كبيرا في إفريقية خاصة، وفي المجال المتوسطي عامة⁽¹⁾.

لقد عرفت مدينة تونس نمواً عمرانيا هائلا ميّزها عن كافة مدن إفريقية. و"مثّلت مدينة تونس نموذجا للمجال الحضري الذي امتزجت فيه عناصر بشرية متنوّعة، قادمة من داخل بلاد المغرب وخارجها، نتيجة لموقعها المتميّز بين بحيرتين، وهو ما جعل منها محطة ضرورية للوافدين من الشمال والجنوب. كما ساعد قربها من البحر على ربطها بسائر البلاد المتوسطية، عن طريق مرساها..."⁽²⁾.

استقطبت مدينة تونس مجموعات بشرية وفدت إليها من المغرب والأندلس. كما استقطبت عددا كبيرا من سكان الحواضر وسكان البوادي الذين قدموا في شكل أفراد أو مجموعات واستفادوا من النهضة الاقتصادية والثقافية الحاصلة بها في مختلف مراحل حياة الدولة الحفصية.

وعاشت داخل هذه المدينة مجموعات بشرية ذات أصول عرقية ودينية مختلفة. فأغلب السكان مسلمون من العرب والبربر والأندلسيين، وعاشت معهم جماعات من العبيد السود والبيض الذين دان بعضهم بالإسلام والبعض الآخر بالنصرانية. ومع هؤلاء جميعا عاش النصارى واليهود الذين قدموا إلى مدينة تونس منذ زمن بعيد أو دخلوها زمن الحفصيين واشتغلوا في التجارة أو في الجندية وخدمة القصر.

ونفصل في ما يلي تنوع النصارى الموجودين بمدينة تونس الحفصية. ونبدأ بذكر العبيد البيض ويسمّون "العلوج". والعلاج هو العبد الأبيض من أصل

(1) حسن محمد: "أوج العصر الحفصي"، في كتاب تونس عبر التاريخ، تونس، 2007، ج2/119.

(2) حسن محمد: المرجع نفسه، ج2/119.

أوروبي ويسمى أيضا "الرومي". ويبدو أن عددهم أقل من العبيد السود. وقع استعباد العبيد البيض إما عن طريق الاختطاف من طرف القراصنة أو عن طريق الأسر في المعارك الحربية وكانوا يعرضون للبيع - كالزئوج - قرب جامع الزيتونة في رحبة كبرى تسمى المعرض⁽³⁾.

ومن العبيد البيض الجواري اللاتي ارتبطن بأفراد الأسر الغنية وخاصة منها الأسرة الحفصية وأسر كبار التجار.

وزيادة على هؤلاء العلوج توجد فرق من الجند تتكوّن من مرتزقة مسيحيين أغلبهم أسبان خاصة من قطلون وأراغون الذين كانوا يشغلون في القرن التاسع الهجري/15م حيا من ربض باب منارة يسمى حيّ النصاري⁽⁴⁾ وقد تحصل هؤلاء الموظفون المخلصون على امتيازات منها حرية العبادة والعمل وعاشوا في أمن وأمان مع التونسيين.

وإلى جانب النصاري المذكورين وجدت مجموعة أخرى منهم امتنعت التجارة وسكنت الفنادق وكانت تحظى بحماية الدولة بسبب كثرة مداخيلها وبسبب الاتفاقيات المعقودة مع الدول الأوروبية والتي كانت توفر لها الأمان وتسمح لها بحرية المبادلات التجارية والعبادة في البلاد⁽⁵⁾.

ولئن ظلّ أغلب النصاري على ديانتهم وعلى عاداتهم وتقاليدهم، فإنّ البعض منهم اعتنق الإسلام⁽⁶⁾ وساهم في تاريخ البلاد بشكل فاعل. وهؤلاء هم الذين يمكن تسميتهم بـ "المسلمين الجدد".

(3) الدولاطي عبد العزيز : مدينة تونس في العهد الحفصي، تونس 1981، 90.

(4) الدولاطي عبد العزيز : المرجع نفسه، 90.

(5) رويس منير : "علاقات الدولة الحفصية بأوروبا النصرانية في العهد الوسيط"، مجلة التنوير، تونس، ماي 2003.

(6) برانشفيك، روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، دار الغرب الإسلامي 1988، 480/1. وحسن، محمد: "أوج العصر الحفصي" المرجع نفسه، ج 121/2 و 122.

2) المسلمون الجدد وخصائصهم :

لقد تحول بعض النصارى عن دينهم الأصلي واعتنقوا الإسلام وبتحولهم إلى الدين الإسلامي اكتسبوا بعض الخصائص تمثل أهمها في ما يلي :

- الخاصية الأولى : تبديل أسمائهم الأصلية وحمل أسماء جديدة عربية إسلامية قد تدل في بعض الحالات على الوظائف والمهام التي يقومون بها : ومن الأسماء التي يحملها المسلم الجديد اسم "عبد الله" كعبد الله الترجمان الذي تحول اسمه من أنسيلم إلى عبد الله. كما يطلق اسم "عبد الله" على والد معتق الإسلام الذي لا يكون مسلما بل نصرانيا، ومن أمثلة ذلك أبو السرور فارح بن عبد الله، ومفتاح بن عبد الله، وشجاع بن عبد الله وعبد الله بن عبد الله الترجمان وسهل بن عبد الله وغيرهم.

وقد يحمل معتنقو الإسلام أسماء وكنى وألقاب توحى بالتفاؤل والتبرك. ومن ذلك أبو السرور فارح بن عبد الله الذي تكرر اسمه في العهد الحفصي من القرن السابع الهجري/13م حتى نهاية عهدهم.

كما تشير أسماؤهم وألقابهم إلى ما يقومون به من وظائف وخاصة منها الوظيفة العسكرية فنقول القائد (فلان) كالقائد أبو السرور والقائد صابر بن القائد فرح، والقادة الظافر وشجاع ومنصور وميمون⁽⁷⁾ وتحمل أسماؤهم معاني الشجاعة والنصر في الحروب. ومن القادة المشهورين القائد مفتاح بن عبد الله المتوفى سنة 663هـ/1265م وهلال بن فتح وشجاع بن عبد الله المتوفى سنة 660هـ/1261م.

El AOUDI-ADOUNI (Raja) : *Stèles funéraires Tunisoises de l'époque Hafside*, (7 Institut National du Patrimoine, Tunis 1997, 1/65.

وتشير الأسماء الأخرى للمسلمين الجدد إلى معاني التبرك كسهل ومبشر وصابر.

أما النسوة فقد حظين بحمل أسماء منها ما يدلّ على الجمال وعلاقات الحبّ كساحر وعطف ومحبوبة ومنها ما يذكّر بأسماء العرب القديمة والشهيرة كفاطمة وפטومة (بنت فاتح) ومريم وميمونة ورحمونة وعتوّ وساحر.

- الخاصية الثانية: القيام بالوظائف السامية : إذ يتولّى معتقو الإسلام وظائف متميزة في الدولة منها تولّي الرتب الهامة في الجيش وفي جميع دواليب الإدارة السلطانية⁽⁸⁾. وكنا ذكرنا قادة الجند ونضيف إليهم المهمات الإدارية السامية كترأس عبد الله الترجمان ديوان البحر (مثلاً نرى لاحقاً) وكتولّي مهمة الطبيب الخاصّ للسلطان كالمدمع يوسف الطبيب وكان طبيب السلطان أبو العباس أحمد ويعدّ من خواصه⁽⁹⁾.

- الخاصية الثالثة : فخر معتقي الإسلام بانتمائهم للإسلام: ويتجلّى فخرها في محافظتها على الدين الإسلامي وفي تطبيق منهاجه. ومن ذلك الزواج على الطريقة الإسلامية واختيار الزوجة من المسلمين. فعبد الله الترجمان مثلاً قد تزوّج من ابنة التاجر الحاج محمد الصفار مثلاً سنرى ذلك لاحقاً.

ثم إنّ معتقي الإسلام اختاروا أن يسمّوا أولادهم بأسماء عربية إسلامية، من ذلك أن القائد أبا السرور فارح بن عبد الله سمّى ابنه باسم عبد الواحد. وجاء في نقيشة قبرية ما يلي : "...هذا قبر عبد الواحد ولد القائد أبي السرور فارح بن عبد الله. توفي يوم السبت العاشر لذي القعدة خمسة وستين وستمائة (1267م)"⁽¹⁰⁾. ومن هذه النقيشة نتعرّف على اسم الابن (عبد الواحد)

(8) برانشفيك روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، 478/1 و480-481.

(9) الترجمان عبد الله: تحفة الأريب، 9.

- El AOUDI-ADOUNI (Raja), *Stèles funéraires Tunisoises*, 1/65

(10)

وهو اسم عربي كما نتأكد أن كل معتنق الإسلام يدعى والده عبد الله بالرغم من بقاءه على دينه المسيحي. والقائد فرح أعطى لابنه اسم عربيًا وهو اسم: صابر الذي توفي سنة 789هـ/1387م⁽¹¹⁾. وقد أنجب القائد سهل عبد الأمير أبي يحيى أبي بكر بنتا سماها فاطمة مما يدل على اندماجه في الحضارة العربية الإسلامية بصفة كاملة حتى أنه اختار اسما متداولاً لدى المجتمعات العربية الإسلامية. وجاء في نقيشة قبرية ما يلي: "...هذا قبر فاطمة بنت القائد سهل بن عبد الله عبد أمير المؤمنين أبو يحيى ابن الأمراء الراشدين توفيت رحمها الله تعالى يوم الاثنين الحادي عشر لصفر عام أحد وتسعين وسبعمائة رحمها الله." ⁽¹²⁾.

هناك ناحية أخرى تدلّ على الافتخار بالانتماء للإسلام تتمثل بالأساس في القيام بإنجازات تدلّ على ذلك منها بناء المؤسسات الدينية والتّحسيس عليها أو مثل الكتابة للردّ على معتقدات المسيحيين من وجهة نظر إسلامية وهو ما سنراه لاحقاً.

لكن هذا الفخر بالانتماء إلى الإسلام لم يكن ليشمل كلّ الناس وقد أشار البرزلي في نوازله إلى الجدل الفقهي حول مصير المرتدّ عن الإسلام فمنهم من يرى أنه يعاقب بمجرد الشكّ في رتبته ومنهم من يرى عدم التسرّع في الحكم عليه وإمهاله حتى تتبين حقيقة أمره.

ونتهي هذه الفقرة بالحديث عن اليهود الذين وجدوا كذلك في مدينة تونس بأعداد تقلّ عن المسيحيين لكنهم كانوا نشيطين في ميدان التجارة والطبّ والتطبّ والتّرجمة وصناعة الحلي والنسيج الشيء الذي سمح لهم بربط علاقات مع عدّة شرائح اجتماعية. وقد تدعّم وجود اليهود بتونس عند حضور بني ديانته اليهودية من الأندلس بعد القرن السابع للهجرة/13م فزاد تأثيرهم في

-Ibid, 1/95. (11)

-Ibid, 1 /272 (12)

الحياة العامة وخاصة في الميادين المذكورة. لكننا وإلى حد الآن لم يوصلنا البحث إلى تحديد بعض اليهود الذين اعتنقوا الإسلام وصاروا من "المسلمين الجدد" وقد نستطيع مستقبلا الخوض في ذلك.

(3) من أبرز معتنقي الإسلام :

نقتصر في بحثنا على ذكر شخصيتين ممن اعتنقوا الإسلام وكانت لهم آثار بارزة في تاريخ بلادنا وهما الأميرة عطف والمفكر عبد الله الترجمان.

أ - الأميرة عطف :

الأميرة عطف أم السلطان المستنصر بالله الحفصي ولدت سنة 647هـ/1249م وتوفيت سنة 675هـ/1277م : إننا لا نعرف اسمها قبل إسلامها وما نعرفه هو أنها أم ولد، أي أنها كانت جارية ولما ولدت من سيدها تحولت إلى أم ولد، وسيدها هو السلطان أبو زكرياء يحي الحفصي (625-647هـ/1228-1249م) الذي أنجبت منه ابنها محمد الذي صار حاكما للبلاد ولقب بالمستنصر بالله. وما من شك أن مكانة هذه المرأة قد زادت لما تولى ابنها حكم الدولة.

ولم تكن الأميرة عطف هذه هي الجارية الوحيدة التي صار ابنها حاكما للدولة فهناك عدة جوارى أنجبن أولادا بلغوا سدة الحكم الحفصي. وتشير الدراسات⁽¹³⁾ إلى أن الطبقة الحاكمة في العهد الحفصي كانت تملك عددا مهما من الإماء وأمهات الأولاد، ويدل ذلك على الترف الذي يميز عيشهم في القصور. وترتفع مكانة الجارية كلما ولدت أولادا. ويحظى أبناء الجاريات بمكانة خاصة لائقة فممنهم من يترقى ويصل إلى أعلى المراتب، لا سيما منها مراكز الحكم.

(13) رويس منير: أطروحة الدكتوراه بعنوان الزواج في العهد الحفصي (بحث مرقون في جزأين)، 252-243/1.

وفي مصادر التاريخ الحفصي توفرت معلومات تخص أسماء أمهات أولاد الحكام الحفصيين. وتميز المؤرخ الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين عن باقي المؤرخين بذكر أسماء أمهات الأولاد اللاتي أنجبن أطفالا صاروا سلاطين حفصيين فيما بعد. وقمنا باستغلال ما أورد من معلومات في هذا المجال ودعّمناها بمعلومات أخرى وجدناها في مصادر مختلفة.

وفي الجدول الموالي وقع تثبيت أسماء عدد من أمهات الأولاد وأصولهن وملاكهن وأبنائهن الذين كانوا في الغالب ممن تولوا الحكم في الدولة الحفصية.

جدول : أمهات أولاد الحكام الحفصيين

| اسم أم الولد وأصلها | صاحبها | ولدها | المصدر |
|---|--|---|---|
| عطف من أصل نصراني | أبو زكرياء الحفصي، -1228/647-625 1249 | المستنصر بالله الحفصي -1249/675-647 1277 | ابن الشماخ، الأدلة، 63 الزركشي، تاريخ الدولتين، 33 ابن خلدون، العبر، 8-507، VII |
| رويدا | أبو زكرياء الحفصي | أبو إسحاق إبراهيم الأول -1279/681-678 1283 | الزركشي، م.ن، 43 |
| ظبية أم ولد عربية | أبو زكرياء الحفصي | أبو حفص عمر الأول -1284/694-683 1295 | الزركشي، م.ن، 50 |
| ضرب (هي طرفة حسب ابن الشماخ) أم ولد رومية | المستنصر بالله الحفصي -1249/675-647 1277 | أبو زكرياء يحيى الثاني الوائقي -1277/678-675 1279 | الزركشي، م.ن، 41 الأدلة، 74 |
| جارية | الوائقي -1277/678-675 1279 | أبو عبد الله محمد أبو عصيدة -1295/709-694 1309 | ابن الشماخ، م.ن، 83 |

| اسم أم الولد وأصلها | صاحبها | ولدها | المصدر |
|---------------------------------------|--|--|--|
| أملح الناس أم ولد رومية | أبو إسحاق إبراهيم الأول -1279/681-678 1283 | أبو بكر الثاني -1318/747-718 1346 | الزركشي، م.ن، 66 |
| حُباب | أبو بكر الثاني -1318/747-718 1346 | أبو حفص عمر الثاني -1346/748-747 1347 | الزركشي، م.ن، 80 |
| سعد السعود أم ولد رومية | أبو بكر الثاني | أبو العباس أحمد والي قفصة | الزركشي، م.ن، 81 |
| عطف أم ولد رومية | أبو بكر الثاني | أبو العباس أحمد الفضل -750 1350/751 | الزركشي، م.ن، 91 |
| قرب الرضا | أبو بكر الثاني | أبو إسحاق إبراهيم الثاني -1350/770-750 1369 | الزركشي، م.ن، 92 |
| قشوال جارية عربية | | أبو العباس أحمد الثاني -1370/796-772 1394 | الزركشي، م.ن، 112 |
| جوهرة من قبيلة المحاميد العربية | أبو العباس أحمد -1370/796-772 1394 | أبو فارس عبد العزيز -1394/837-796 1434 | الزركشي، م.ن، 114 |
| ريم جارية علية | أبو عبد الله محمد المنصور ابن أبي فارس عبد العزيز | أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر -1434/839-837 1435 | الزركشي، م.ن، 131 |
| ريم (هي نفسها السابقة) | أبو عبد الله محمد المنصور ابن أبي فارس عبد العزيز | أبو عمرو عثمان -1435/894-839 1488 | الزركشي، م.ن، 134 |
| جارية سوداء | المسعود بن أبي عمرو عثمان | الرشيد أخو الحسن الحفصي | De La DE LA PRIMAUDAIE, Documents inédits, R.A, 1875, p.270 |

| اسم أم الولد وأصلها | صاحبها | ولدها | المصدر |
|---------------------|---|---|-------------------------------|
| أم ولد | الحسن بن محمد الحفصي -1525/950-932 1543 | محمد بن الحسن الحفصي -1572/982-980 1574 | ابن أبي دينار، المؤنس، 175 |

يذكر الجدول، 15 أم ولد، نعرف أسماء 11 منهن، نذكرهنّ مع وضع رقم يدلّ على تكرّر الاسم : رويدا(1)، عطف(2)، ضرب(1)، أملح الناس(1)، حباب(1)، سعد السّعود(1)، قرب الرّضا(1)، ريم(2)، قشوال(1). وبذلك تكون كلّ هذه الأسماء أسماء عربيّة ممّا يدلّ على أنّ كلّ الجوّاري قد اندمجن في الحضارة العربيّة الإسلاميّة حتّى وإن كنّ من أصل غير عربي. مع الإشارة إلى أنّنا لم نتأكّد من نسبة اسم قشوال إلى العربيّة أم إلى غيرها من اللّغات. أمّا أمّهات الأولاد اللّاتي لم تذكر المصادر أسماءهنّ فعددهنّ 4 ونذكر منهنّ جارية السّلطان الوائق (675-678هـ/1277-1279م) التي فرّت بعد مقتل سيّدها ولجأت إلى الولي الصّالح محمد المرجاني، وأنجبت مولودا سيتولّى فيما بعد حكم الدّولة الحفصيّة وهو المعروف بأبي عسيده أبي عبد الله محمد وحكم بين سنتي 694هـ/1295م و709هـ/1309م⁽¹⁴⁾.

وإلى جانب هذه الجارية (أمّ الوائق)، لا تذكر المصادر اسم جارية الأمير المسعود بن أبي عمرو عثمان ونقول فقط إنّها أمة سوداء⁽¹⁵⁾ أنجبت له الرّشيد أخو الحسن الحفصي. ثمّ إنّ السّلطان أبا محمد الحفصي (932-950هـ/1526-1543م) كانت له جارية لا نعرف اسمها أنجبت له ابنه محمد الذي سيكون آخر حاكم من السّلالة الحفصية وحكم مدّة قصيرة (980-982هـ/1572-1574م)⁽¹⁶⁾.

(14) ابن الشّماخ : الأدلة البيّنة النّورانية، 83.

(15) - DE LA PRIMAUDAIE (E.), «Documents inédits», In R.A., 1875, p270.

(16) ابن أبي دينار: المؤنس، 175.

واللافت للانتباه هو أنّ الشخص الواحد يمكن أن يتسرّى بأكثر من جارية واحدة خاصة إذا كان من الطبقة الميسورة. والسلطان المستنصر بالله (647-675هـ/1249-1277م) له جارية تدعى ضرب⁽¹⁷⁾ تحولت إلى أم ولد بعد أن أنجبت له الوائق الذي حكم الدولة من بعد والده. ولم تكن هذه الجارية هي الوحيدة التي يملكها المستنصر بالله فقد ذكرت المصادر أنه "كانت تزف إليه كل ليلة جارية"⁽¹⁸⁾.

وبالعودة إلى معطيات الجدول نلاحظ أنّ سلطانين حفصيين قويين قد ارتبطا بعدد كبير من الجواري اللاتي صرن أمّهات أولاد، وهما السلطان أبو زكرياء يحيى الأوّل (625-647هـ/1228-1249م) والسلطان أبو يحيى أبو بكر الثاني (718-747هـ/1318-1346م). فكانت لأبي زكرياء الأول عدّة جواري أنجب من ثلاث منهن وصرن أمّهات أولاد وهنّ :

الأولى : جارية من سبي الجلائقة أهداها له جدّ المؤرّخ ابن خلدون، وهو في الأندلس، وولدت له ثلاثة أبناء هم: أبو زكرياء يحيى ولم يعمر طويلا وأبو بكر وعمر⁽¹⁹⁾. لكنّ الزركشي قال إنّ هذه الجارية تعود إلى أصل عربي تدعى ظبية وهي التي ولدت لأبي زكرياء ولده أبا حفص عمر الأوّل⁽²⁰⁾. ولمّا كانت هذه المرأة منجبة لثلاثة أبناء تولوا الخلافة فقد كانت تدعى، أم الخلائف⁽²¹⁾.

والثانية : الجارية رويدا وهي التي أنجبت إبراهيم بن أبي زكرياء⁽²²⁾ الذي صار الخليفة الحفصي الرابع وقد تولّى الحكم بين سنة 678هـ/1279م و681هـ/1283م.

(17) الزركشي: تاريخ الدولتين، 41.

(18) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، 349/5، عبد الوهاب، حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، 108.

(19) ابن خلدون : العبر، 8-507/7.

(20) الزركشي : تاريخ الدولتين، 50.

(21) برانشفيك، روبر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، 120/1.

(22) الزركشي : تاريخ الدولتين، 3-4.

والثالثة: الجارية عطف وهي التي نفصل الحديث عنها وتعتبر أشهر الجواري الحفصيات، وتعود شهرتها إلى أمرين: الأمر الأول: إنجابها لولد صار ثاني حاكم حفصي وهو المستنصر بالله الذي عرف بالقوة من بين كل حكام المسلمين وحكم بين سنة 625هـ/1228م وسنة 647هـ/1249م. والأمر الثاني: إنشاء معلمين دينيين بارزين هما المدرسة التوفيقية وجامع التوفيق مثلما سنرى لاحقاً.

ونضيف إلى هذه الجواري الثلاث جارية أخرى⁽²³⁾ كانت تعيش مع السلطان أبي زكرياء لكن لم نعلم أنها أنجبت له أولاداً وكل ما نعرفه أنه كان شديد التعلق بها وعندما ماتت تأثر كثيراً ومرض من أجلها.

أمّا السلطان أبو يحيى أبو بكر الثاني فقد ملك عدة جواري تحولت أربعة منهن إلى أمهات أولاد هن:

الأولى : اسمها حباب والدة ابنه عمر الذي سيحكم الدولة باسم عمر بن أبي بكر أبي حفص عمر الثاني بين سنة 747هـ/1346م و سنة 748هـ/1347م.

والثانية : أم ولد أصلها رومية، اسمها سعد السعود، والدة ابنه أحمد الذي سيحكم الدولة باسم أبي العباس أحمد بن أبي بكر، ولم يبق في الحكم سوى سبعة أيام، وبعده دخل أبو الحسن المريني تونس⁽²⁴⁾.

والثالثة: أم ولد رومية أيضاً اسمها عطف والدة ابنه الفضل الذي سيحكم الدولة باسم الفضل ابن أبي بكر أبي العباس أحمد الفض⁽²⁵⁾، ويبدو أن في تسميتها باسم عطف هو تذكّر وإحياء لوالدة المستنصر التي خلد التاريخ ذكراها لكثرة منجزاتها ومآثرها.

(23) مناقب الصالحين : مخطوط عدد 7863، 9 أ.

(24) الزركشي : تاريخ الدولتين، 81.

(25) الزركشي : المصدر نفسه، 91.

والرابعة : أم ولد اسمها قرب الرضا، والدّة أبي إسحاق إبراهيم الثاني ابن أبي بكر، والذي سيطر ابن تافراجين على الحكم في عهده⁽²⁶⁾.

ونشير أيضا في هذا المجال أن الجارية المسمّاة ريم التي كانت على ملك الأمير أبي عبد الله المنصور ابن أبي فارس عبد العزيز أنجبت ولدين صارا حاكمين للدولة الحفصية هما : السلطان المنتصر (837-839هـ/1434-1435م)⁽²⁷⁾، والسلطان أبو عمرو عثمان (839-894هـ/1435-1488م)⁽²⁸⁾.

ونواصل عرض محتويات الجدول ونقول إن أصل الجواري المذكورات مختلف فمنهنّ الروميات والسوداويات والعربيات ونتحدّث عنهنّ في ما يلي :

الروميات هن نصرانيّات من أصل أوربيّ، عددهن سِتّة، وأسمائهنّ عطف، وضرب، وأملح الناس، وسعد السّعود، وعطف، وريم. وأصلهنّ الأوروبيّ يدلّ على جمالهنّ، وجمالهنّ يفسّر كثرتهنّ بالقصور الحفصية. والمعتقد هو أن كل الجواري أسلمن وانصهرن في المجتمع وتقاليدّه. وما من شكّ أن أثر أمّهات الأولاد بارز في القصور الحفصية خاصة إذا تولّى أولادهنّ مناصب سامية في الدولة. كما أن هذا الأثر يثبت من خلال قدوم عدد من النصارى والاستقرار بها بدافع الضمان والحماية من هذه الجواري. ونذكر أن السلطان أبا عمرو عثمان ابن الروميّة ريم لما بويع بالولاية سنة 839هـ/1435م وفد عليه جميع أخواله وأقاربه مهنئين له، فأكرم نزلهم وأسكنهم الربض الملاصق للقصبة حيث مقرّه، فعرف من ذلك الحين باسم "حومة العلوج"⁽²⁹⁾.

(26) الزركشي : المصدر نفسه، 92.

(27) الزركشي : المصدر نفسه، 131.

(28) الزركشي : المصدر نفسه، 134، ابن أبي دينار، المؤنس، 159، عبد الوهاب، حسن حسني، شهيرات التونسيّات، 122.

(29) عبد الوهاب حسن حسني: شهيرات التونسيّات، 123.

أما العربيات، فعددهن ثلاثة وأسمائهن ظبية، وقشوال، وجوهرة. وقد يكون أصلهن من المولدات أي من اللاتي مثلن مزيجا بين الأجناس وحملن اللون الأسمر الموجود لدى غالب أهل البلد. وتتسب أم الولد جوهرة مثلا إلى عرب طرابلس، وهي والدة أبي فارس عبد العزيز⁽³⁰⁾.

أما السوداويات، فلم يذكر الجدول سوى واحدة منهن فقط مما يعني العزوف عن الإنجاب من الأمة السوداء. وإذا حصل أن حملت وأنجبت الجارية السوداء فإن ابنها الأسود سيحمل تبعية انتمائه إلى السود. والأمير الرشيد أخو الحسن الحفصي لم ترض العائلة الحاكمة بولايته للعهد لكونه من جارية سوداء اللون⁽³¹⁾ حتى أنه فرّ أصلا من تونس إلى الخارج لتفادي حصول مشاكل مع أسرته المالكة.

ولنعد إلى الحديث عن الأميرة عطف فقد اعتنقت الإسلام وحسن إسلامها والدليل على ذلك إنشاؤها لمعلمين دينيين بارزين بمدينة تونس هما جامع ومدرسة⁽³²⁾. يقول ابن الشّماع : وأمّ المنتصر أمّ ولد اسمها عطف وهي التي أمرت ببناء جامع التّوفيق والمدرسة التّوفيقيّة.

وجامع التّوفيق يطلق الآن عليه اسم جامع الهواء وهو يوجد بنهج جامع الهواء. يقول المؤرّخ محمد ابن الخوجة : "ولعلهم أطلقوا عليه اسم جامع الهواء لحسن مناخه وارتفاع موقعه"⁽³³⁾.

لقد بنت الأميرة عطف مدرسة التّوفيق في منتصف القرن السّابع الهجري/13م وقد يكون ذلك في سنة 650هـ/1252م حسب المؤرّخ ابن الخوجة في كتابه تاريخ معالم التّوحيد، أي أنّ الإنجاز قد تمّ زمن المستنصر بالله الحاكم القويّ الذي ارتبط ذكره بارتفاع شأنه بين الأمم حتى أن مبايعة المسلمين له قد

(30) الزركشي : تاريخ الدولتين، 114.

(31) DE LA PRIMAUDAIE (E.), « Documents inédits », In R.A., 1875, p270.

(32) الزركشي : تاريخ الدولتين، 33، وابن الشّماع: الأدلة البيّنة النورانية، تونس، 1983، 63، وابن خلدون : العبر، 6-105/6. وابن أبي دينار: المؤنس، تونس، 1967، 134-135.

(33) ابن الخوجة محمد: تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، دار الغرب الإسلامي، 1985، 122.

بلغته من الأندلس ومن شريف مكة ومن مصر وتلقب تبعا لذلك بأمر المؤمنين. كما أن الدولة زمن المستنصر عرفت بثرائها بسبب استقرار الأوضاع وكثرة المداخل وليس من المستغرب أن تكون أم الحاكم (عطف) ثرية جدا - تبعا لثراء الدولة - وثراؤها مكنها من إنجاز مباني عمرانية كبيرة كالجامع والمدرسة.

حدد المؤرخ ابن أبي دينار مكان المدرسة وقال إنها كانت موجودة قبالة زاوية الشيخ أبي القاسم الجليزي وأنها اندرست في وقته⁽³⁴⁾. وجددت المدرسة في عهد البايات الحسينيين ولا زالت موجودة في الوقت الحاضر وهي المكان الذي يوجد فيه معهد الحضارة الإسلامية التابع لجامعة الزيتونة بتونس حاليا. وكانت المدرسة التوفيقية - كما أرادت مؤسسها وأرادها السلطان المستنصر بالله - حافلة بالعلم ومن المشايخ الذين علموا بها : الشيخ المحدث أبو بكر محمد بن أحمد بن سيد الناس اليعمري الاشبيلي المتوفى سنة 1261/657م وهو الذي استدعاه المستنصر بالله لشهرته ليدرس بها الحديث. والشيخ أبو عبد الله محمد الشريف المتوفى سنة 1268/666م أحد أصحاب أبي الحسن الشاذلي والإمام ابن عرفة والذي درس بها مدة ثم فر منها عند انتشار الطاعون بتونس وسكنها تلميذه محمد الأبّي سنة 796/1393م وصار من شيوخ العلم فيها.

ونضيف إلى ما ذكر ما قاله المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه **شعيرات التونسيات** من أن هذه المدرسة هي أول معهد علمي مستقل أسس بتونس ونقل أبياتا في حق مؤسسها الأميرة عطف من نظم الشاعر الشاذلي خزندار ونصّها⁽³⁵⁾.

| | |
|----------------------------|-------------------------------|
| غابت مآثرك البيضاء أياديها | إن غاب شخصك يا ذات الجلال فما |
| يديك تستمطر الرحمى لبانيها | في تونس ظهرت أولى المدارس عن |
| أفواها يتفشى بالدعاء فيها | مرت بها الناس أجيالا وذكرك في |

(34) ابن أبي دينار : المؤنس، 134-135.

(35) ابن الخوجة محمد : تاريخ معالم التوحيد، 289.

ويبدو أن الأميرة عطف قد حبست أعباساً على الجامع والمدرسة فنشطت وامتألت بالطلبة والعم. لكن يبدو أن هذه الأعباس قد تلاشت بانقراض حكم البلاد من الحفصيين إلى الأتراك ودليل ذلك أن المؤرخ ابن أبي دينار تحدث في كتابه المؤنس⁽³⁶⁾ عن اندراس مدرسة التوفيق في عهده مما يوحي بنضوب موارد الإنفاق والإشراف عليها وعلى أهل العلم فيها. ولما تجددت موارد المدرسة في عهد البايات الحسينيين رجعت إلى سالف نشاطها العلمي الذي تواصل مدة من الزمن.

إن تأسيس جامع ومدرسة هما من علامات حسن إسلام المرء الذي يملك ثروة وهو ما وجدناه عند الأميرة عطف التي بقي ذكرها مرتبطاً باسم ابنها المستنصر وبتأسيسها لجامع ومدرسة كما قلنا سابقاً.

ب- عبد الله الترجمان:

عبد الله الترجمان⁽³⁷⁾ مثال آخر من الذين اعتنقوا الإسلام في مدينة تونس زمن الحفصيين وكانت له آثار بارزة خاصة في المجال الثقافي.

هو في الأصل مسيحي أسلم، اسمه أنسيلم تورمادا Anselm Turmeda . ولد بمدينة بالما بجزيرة ميورقة الأسبانية في عائلة ميسورة سنة 756هـ/1355م وكان وحيد أبويه ونشأ بميورقة قبل أن يتحول إلى أسبانيا ثم إيطاليا ويحلّ بتونس. بدأ دراسته في سن السادسة وقرأ الإنجيل وحفظ أكثر من شطره في مدة سنتين ثم أخذ في تعلم لغة الإنجيل وعلم المنطق مدة ست سنين

(36) ابن أبي دينار : المؤنس، ص 134-135.

(37) ابن الخوجة محمد : صفحات من تاريخ تونس، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986، 360، وبوذية، محمد: مشاهير التونسيين، تونس 2001، 340.

-M DE EPALZA, "L'auteur de la (Tuhfa al-arib), Anselm Turmeda (Abdullah al-Turjuman)", Ibla, n.111(1965).

-BELKHOJA (M), "Le tombeau d'Abdullah ben Abdallah", Revue Tunisienne, n.13, (1905).

- البشروش توفيق : موسوعة مدينة تونس، السلسلة التاريخية عدد 8، 1999، ص 101.

ثم ارتحل من بلده إلى مدينة لاردة في أرض القطلان وهي مدينة العلم عند النصارى حسب تعبيره وفيها قرأ علم الطبيات والنجامة مدة ست سنين ثم تصدر فيها لإقراء الإنجيل ولغته ملازما ذلك مدة أربع سنين ثم ارتحل إلى مدينة نبونية وسكن بها كنيسة لقسيس كبير القدر اسمه نقلا مرتيل⁽³⁸⁾ وقرأ عليه علم أصول دين النصارانية وأحكامه وتقرّب منه حتّى صار من أخصّ خواصّه فلازمه عشر سنين. وهو الذي أمره بالدّخول إلى الإسلام في قصّة طريفة يرويها عبد الله الترجمان بنفسه ونقلها في ما يلي:

"... ثم ارتحلت إلى مدينة نبونية من الابردية وهي مدينة كبيرة جدا... وهذه مدينة علم عند جميع القطر... ولا يحكم فيها إلا القسيس الذي يقرأون عليه فسكنت بها كنيسة لقسيس كبير السنّ وعندهم كبير القدر اسمه نقلا مرتيل... فقرأت على هذا القسيس علم أصول دين النصارانية وأحكامه، ولم أزل أتقرّب إليه بخدمته والقيام بكثير من وظائفه حتّى صيرني أخصّ خواصّه وانتهيت في خدمته وتقريبي إليه إلى أن دفع مفاتيح مسكنه وخزائن مأكله إليّ، ولم يستثن من ذلك سوى مفتاح بيت صغير بداخل مسكنه فكان يخلو فيه بنفسه الظاهر أنه بيت خزانة أمواله التي تهدى إليه، والله أعلم بحقيقته فلازمته على ما ذكرت من القراءة عليه والخدمة له عشر سنين ثم أصابه مرض يوما من الدهر فتخلف عن القراءة وانتظره أهل المجلس وهم يتذكرون في مسائل من العلوم إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قوله تعالى إلى نبيّه عيسى عليه السلام أنه يأتي من بعدي نبي اسمه (البار قليط) فعظم ذلك بينهم في مقالهم وكثر جدالهم.

ثم انصرفوا من غير تحصيل فائدة من تلك المسألة، فأتيت مسكن الشيخ صاحب الدرس المذكور فقال لي : ما الذي عندكم اليوم من البحث في غيبتني عنكم؟ فأخبرته اختلاف القوم في اسم (البار قليط) وأن فلانا أجاب بكذا وأجاب

(38) الترجمان عبد الله: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، طبع مطبعة التمدن بباعدين (دون تاريخ) ص 4-8.

فلان بكذا وسردت لهم أجوبتهم فقال لي : وبماذا أجبت أنت؟ فقلت بجواب القاضي فلان في تفسيره للإنجيل. فقال لي : ما قصرت وقربت، وفلان أخطأ وكاد فلان يقارب الصواب، ولكن الحق خلاف هذا كله لأن تفسير هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل، فبادرت إلى قدميه أقبلهما، وقلت : يا سيدي، قد علمت أنني ارتحلت إليك من بلد بعيدة، ولي في خدمتك عشر سنين حصلت عنك فيها من العلوم جملة لا أحصيها فلعل من جميل إحسانك أن تتفضل عليّ بمعرفة هذا الاسم الشريف، فبكى الشيخ وقال : وولدي والله إنك لتعزّ عليّ كثيرا من أجل خدمتك لي وانقطاعك إلي، وإن في معرفة هذا الاسم الشريف فائدة عظيمة، لكن أخاف عليك أن تظهره فتقتلك النصارى في الحين.

فقلت : يا سيدي والله العظيم وبحقّ الإنجيل ومن جاء به لا أتكلم بشيء مما تسره إليّ إلا عن أمرك فقال: يا ولدي إنني سألتك في أول قدومك عن بلدك وهل هو قريب من المسلمين وهل يغزونكم أو تغزونهم؟ لأستخبر به ما عندك من المنافرة للإسلام، فاعلم يا ولدي أن (البار قليط) هو اسم من أسماء نبيّهم محمّد صلى الله عليه وسلّم أنزل الكتاب الرابع المذكور على لسان دانيال عليه السلام وأخبر أنه سينزل هذا الكتاب عليه وأن دينه دين الحقّ، وملّته هي الملة البيضاء والمذكورة في الإنجيل.

فقلت يا سيدي وما تقول في دين النصارى؟ فقال : يا ولدي لو أن النصارى قاموا على دين عيسى عليه السلام - لكانوا على دين الله - لأنّ عيسى وجميع النبيّين دينهم دين الله تعالى. فقلت : وكيف الخلاص؟ فقال: بالدخول في دين الإسلام. فقلت وهل ينجو الداخل فيه؟ قال لي: نعم ينجو في الدنيا والآخرة. فقلت له يا سيدي إنّ العاقل يختار لنفسه أفضل ما يعلم، فإذا علمت فضل دين الإسلام فما منعك من الدخول فيه ؟

فقال لي : يا ولدي إن الله لم يطلعني على فضل دين الإسلام وشرف نبي الإسلام إلا بعد كبير سنّي وضعف جسمي، ولا عذر لنا فيه بل حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنّك لتركت كلّ شيء ودخلت في دين الحقّ، وحبّ الدّنيا رأس كل خطيئة فأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى من رفعة الجاه والعز والترقي وكثرة عرض الدّنيا، ولو أنّي ظهر عليّ شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلني العامّة في أسرع وقت، وهب أنّي نجوت منهم وخلصت إلى المسلمين فأقول : إنّني جئتكم مسلماً فيقولون لي: قد نفعت نفسك بالدخول في دين الحقّ فلا تمنّ علينا في دين خلصت به نفسك من عذاب الله فأبقى بينهم شيخاً فقيراً ابن تسعين سنة لا أفقه لسانهم ولا يعرفون حقّي، فأموت بينهم بالجوع، وأنا والحمد لله على دين محمد صلّى الله عليه وسلّم وعلى ما جاء به وإن كنت على دين عيسى ظاهراً بعلم الله ذلك منّي.

فقلت له : يا سيّدي أفندلني أن أمشي إلى بلاد المسلمين أو أدخل في دينهم ؟

فقال لي : إن كنت عاقلاً طالباً للنّجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدّنيا والآخرة، ولكن يا ولدي هذا أمر لم يحضره أحد معنا الآن فاكتمه بغاية جهدك، وإن ظهر عليك شيء منه تقتلك العامّة لحينك ولا أقدر على نفعك، ولا ينفعك أن تتقلّ ذلك عنّي فإنّي وقولي مصدّق عليك وقولك غير مصدّق عليّ، وأنا بريء من دمك إن فهمت بشيء من هذا. فقلت له : يا سيّدي أعوذ بالله من سريان الوهم إلى هذا الحدّ، وعاهدته بما أَرْضاه. ثم أخذت من أسباب الرّحلة ووَدّعته فدعا لي بخير وزوّدني بخمسين ديناراً ذهبياً...".

وهكذا مكّنت هذه المحادثة بين أنسيلم تورمادا وأستاذه من تحويل نظر أنسيلم من عالم المسيحيّة إلى عالم الإسلام. وصار صاحبنا يفكر في الذّهاب إلى دار الإسلام.

واتجه صاحبنا يبحث عن مكان يعيش فيه بين المسلمين وحدّثنا بنفسه عن رحلته التي قادته إلى مدينة تونس. فقد ركب البحر منصرفا إلى بلده ميورقة فأقام بها ستة أشهر ثم سافر منها إلى جزيرة صقلية وأقام بها خمسة أشهر إلى أن حضر مركب يسافر إلى مدينة تونس فسافر ووصل مدينة تونس واستقرّ بها نهائيا انطلاقا من سنة 793هـ/1391م (أو السنة التي بعدها).

أقام عند أحد تجّار تونس وسريعا ما رغب في الدّخول إلى الدّين الإسلامي وأسلم على يدي السلطان أبي العباس أحمد (772-796هـ/1370-1394م) في سنّ الخامسة والثلاثين وحسن إسلامه.

وننقل في ما يلي حديثه عن مرحلة دخوله مدينة تونس وكيفية إسلامه أمام حاكم البلاد :

يقول عبد الله التّرجمان⁽³⁹⁾ : "... فلما نزلنا بديوان تونس وسمع بي الذين بها من النّصارى أتوا بمركوب حملوني معهم إلى ديارهم وصحبّتهم بعض التّجار السّاكنين أيضا بتونس فأقامت عندهم في ضيافتهم على أرغد عيش أربعة أشهر. وبعد ذلك سألتهم هل بدار السلطنة أحد يحفظ لسان النّصارى، وكان السلطان إذ ذاك مولانا أبو العباس - رحمه الله - فذكروا لي أن بدار السلطان المذكور رجلا فاضلا من كبار خواصّه اسمه يوسف الطّبيب وكان طبيبه ومن خواصّه ففرحت بذلك فرحا شديدا وسألت عن مسكن هذا الرجل الطّبيب فدللت عليه واجتمعت به وذكّرت له شرح حالي وسبب قدومي للدّخول في دين الإسلام وإنّي أرغب أن يكون ذلك على يديه فسّر الرجل بذلك سرورا عظيما ثم ركب فرسه واحتملني معه إلى دار السلطان، ودخل فأخبره بحديثي، واستأذنه عليّ، فتمثّلت بين يديه، فأول ما سألني السلطان عن عمري فقلت له خمسة وثلاثون سنة ثم سألني كذلك عما قرأت من العلوم فأخبرته، فقال لي: قدمت خير مقدم فأسلم على بركة الله تعالى، فقلت للتّرجمان - هو الطّبيب

(39) التّرجمان عبد الله: تحفة الأريب، 9-10.

المرقوم - : إنّه لا يخرج أحد من دين إلا ويكثر أهله القول فيه والطعن عليه فأرغب من إحسانكم إلى الذين بحضرتكم من تجّار النصارى وأجنادهم وأختارهم وتسألوهم عني وتسمع ما يقولونه في حقّي، وحينئذ أسلم.

فقال لي بواسطة المترجم أن أنت طلبت كما طلب عبد الله بن سلام من النبي صلى الله عليه وسلم حين أسلم، ثم أرسل إلى أجناد النصارى وبعض تجارهم وأدخلني في بيت قريب من مجلسه فلما دخل النصارى عليه قال لهم: ما تقولون في هذا القسيس الجديد الذي قدم في الركب قالوا: يا مولانا هو عالم كبير في ديننا، وقال شيوخنا إنهم ما رأوا أعلى منه درجة في العلم والدين في ديننا.

فقال لهم : وما تقولون فيه إذا أسلم ؟

فقالوا : نعوذ بالله من ذلك وهو ما يفعل هذا أبدا.

فلما سمع ما عند النصارى بعث إلي فحضرت بين يديه وتشهدت بشهادة الحق بمحضر النصارى فصلبوا على وجوههم وقالوا: ما حمّله على هذا إلا حبّ التزوّج فإن القسيس عندنا لا يتزوّج فخرجوا مكروبين محزونين، فرتّب لي السلطان - رحمه الله - كل يوم ربع دينار، وأسكنني في دار المختص وزوّجني بنت الحاج محمد الصغار، فلما عزمّت على البناء بها أعطاني مائة دينار ذهباً وكسوة جديدة كاملة فابتليت بها وولد منها ولد سمّيته محمّداً على وجه التبرك باسم نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم."

وبذلك أتت كيفة إسلامه بسيطة واكتفى فيها بنطق الشهادتين ولم تكن هناك مراسم خاصّة في إعلان الزّواج وإنما هي بسيطة تجعل الانتقال من الدين الأصلي إلى الإسلام تتم بسهولة ولا حاجة إلى حضور شيخ دين أو عدول إشهاد ليشهدوا على إسلامه.

ونلاحظ أن القسيسين الذي أحضروا إلى المجلس بمناسبة إسلامه فوجئوا باعتناقه الإسلام (فصلبوا على وجوههم) وحاولوا أن يبرّروا صنيعة برغبته في الزّواج إذ أنه كان ممنوعاً عنه لرهبانيته.

ولم تكن حادثة إسلامه لتمرّ هينة على رجال الدين المسيحيين فقد حاول أحد أصدقائه القدامى من الرهبان إثناءه عن ذلك ودبر له عملية فراره. فقد قدم صديقه في سفينة من صقلية في عملية قرصنة وكتب له رسالة وعده فيها بالمناصب والمتاع. وجاء في الرسالة ما يلي : "أما بعد السلام من أخيك فرنسيس القسيس أعرفك أنني وصلت هذا البلد برسلك لأحملك معي وأنا اليوم عند صاحب صقلية بمنزلة أن أعزل وأولي، وأعطي وأمنع، وأمر جميع مملكته بيدي، فاسمع مني وأقبل عليّ على بركة الله تعالى، ولا تخف ضياع مال ولا جاه وغير ذلك فإنّ عندي من المال والجاه ما يغمر الجميع وأعمل لك كل ما تريد".

لكنّ عبد الله الترجمان كانا واثقا من تصرفاته رافضا النقاش في المسألة وقال أمام السلطان أبي فارس عبد العزيز -الذي وصلته الرسالة الأصلية وترجمتها- ما يلي : " ... يا مولاي الذي عندي ما علمت مني من كوني أسلمت باختياري رغبة في دين الحق ولست أجيب إلى شيء مما أشار إليّ قطعا". فقال له السلطان الحفصي: قد علمنا صحة إسلامك ولا عندنا فيك شكّ أصلا...⁽⁴⁰⁾.

ومن غير المستبعد أن تكون الكنيسة قد بقيت مكتوفة الأيدي أمام تزايد أعداد معتقي الإسلام من ذوي المكانة في الديانة المسيحية فكانت تعمل على إرجاعهم إلى حظيرة ديانتهم لكن دون جدوى وقد يكون قدوم قس لإرجاع عبد الله الترجمان للمسيحية داخلا في هذا الإطار وهو من صميم عمل الكنيسة. وهذا ما نفهمه من خلال عمل قامت به البابوية لما تزايد عدد معتقي الإسلام بالمغرب في العهد الموحد. ففي 2 فيفري 1226م (624هـ) أبلغ رئيس أساقفة طليطلة بالعدد الكبير من الجاليات المسيحية التي ارتدّت عن مسيحيتها واعتنقت الإسلام. ويبدو أن فرناندو الثالث ملك قشتالة فطن إلى خطر ردّة رعاياه ولذلك

(40) الترجمان عبد الله: تحفة الأريب، 12.

ولأجل درء هذا الخطر بيّن في المعاهدة التي عقدها مع الخليفة الموحي المأمون أنه يمنع على مسيحيي المغرب التخلي عن ديانتهم واعتناق الإسلام. وبذلك نصّب الملك القشتالي نفسه مدافعا وحاميا للمسيحية في بلاد المغرب⁽⁴¹⁾.

ولنعد إلى عبد الله التّرجمان وإلى المكاسب التي حصل عليها بعد إسلامه فقد تولّى عدة مناصب أكسبته الوجاهة والثراء. فبعد خمسة أشهر من إسلامه قدّمه السلطان لقيادة البحر بالديوان. واعتبر الباحث محمد بن الخوجة أنّ قيادة البحر هي خطة شبيهة بخطة مدير القمارق في وقته⁽⁴²⁾. وكان أثناء ذلك يترجم بين يدي السلطان من اللّغات الأوروبيّة إلى اللّغة العربيّة (التي حفظها في مدة عام) في المهمّات التي تعرض للدولة في علاقاتها مع السّقراء الأوروبيين. ومن هنا جاءت تسميته بعبد الله التّرجمان التي لازمته في حياته وبعد مماته.

وأرسله السلطان أبو العباس إلى المهدية للتفاوض مع الجنوبيين الفرنسيين الذين نازلوا المدينة وأقاموا عليها مدة شهرين ثم غادروها دون الظفر بمرغوبهم. كما انتقل مع السلطان نفسه لحصار قابس وكلفه السلطان بخزائنه ثم انتقل معه إلى حصار قفصة الذي لم يكتمل بسبب مرض السلطان ثم وفاته سنة ست وتسعين وسبعمائة.

ولما تولّى الأمير أبو فارس عبد العزيز جدّد له جميع أوامر والده بمرتباته ومنافعه كلّها ثمّ زاده ولاية دار المختص التي يمكن أن تكون مختصة في شؤون البحر وشؤون السفن الداخلة إلى الميناء. وبذلك جمع بين تولّي ديوان البحر ودار المختصّ مما يعني إشرافه على جانب مهمّ من الحياة التجاريّة البحريّة للدولة. وحصلت أثناء تولّيه مهام هذه الدار مشكلة تمثلت في مهاجمة سفينتين صقليتين سفينة راسية بالميناء واستولى المهاجمون النّصارى على حمولتها من السّلاح. ولئن تمكن صاحبنا من فداء السفينة المغتصبة

41) القادري بوتشيش إبراهيم : تاريخ الغرب الإسلامي، بيروت 1994، 103-104.

42) ابن الخوجة محمد: صفحات من تاريخ تونس، 360.

وإرجاعها إلى أصحابها بأرخص التكاليف فإننا لا ندرى هل واصل توليه مهامه بعد هذه الحادثة أم أنه انقطع عنها ؟

وبالإضافة إلى مهام عبد الله الترجمان في ديوان البحر ودار المختص والترجمة فقد ساهم في إثراء الحياة الثقافية بالتأليف والكتابة. لقد ترك لنا عدة آثار مكتوبة، كتبها باللغتين الكاتالانية والعربية. ومما كتب بالكاتالانية الآثار التالية⁽⁴³⁾ :

- التعاليم الصالحة.

- رباعيات مملكة ميورقة.

- كتاب النبوات.

- مجادلة الحمار، مستندا فيه إلى رسائل إخوان الصفاء، وترجم أربع مرات إلى الفرنسية ومرّة إلى الألمانية ونشره آسين بلاثيوس في المجلة الأسبانية : Revue de la Philologie,ESP,MADRI.

- بشارات الأنبياء بالنبي محمد عليه الصلوة والسلام، أشار إليه في آخر كتابه التحفة.

أمّا باللغة العربية فقد وضع عبد الله الترجمان كتاب: تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب، وكنا قد أخذنا منه فقرات للتعريف بصاحبه وظروف قدومه إلى تونس وكيفية إسلامه وبقائه على الدين الإسلامي. ألف الترجمان كتابه سنة 823هـ/1420م وجعله في مقدّمة وثلاثة فصول.

يقول عبد الله الترجمان في مقدّمة كتابه⁽⁴⁴⁾ : "وقد ابتدأت فيه بذكر بلدي ومنشئي ثم رحلتي عن ذلك المقام. ودخولي في دين الإسلام والإيمان بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثم أتبعته ذلك بما غمرني من إحسان مولانا أمير

(43) عبد الوهاب حسن حسني: كتاب العمر، مراجعة وإكمال محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، تونس، 1990/410-411.

(44) الترجمان عبد الله: تحفة الأريب، 3-5.

المؤمنين أبي العباس أحمد بن الأمراء المكرمين. وبعض ما اتفق لي في أيام ولده مولانا أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز وأذكر طرفاً من سيرته الحميدة وآثاره الجميلة ثم أتبعته ذلك ... (ب) الردّ على دين النصرانية وثبوت فضل الملة المحمدية. صلى الله على صاحبها وسلم. ولما حصل هذا المختصر الغريب على هذا الترتيب العجيب سمّيته: تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب. وجعلته ثلاثة فصول لتسهيل مطالعته على الناظر ولا يملّه الخاطر.

الفصل الأول: في ابتداء إسلامي وخروجي من دين النصرانية إلى الملة الحنيفة وفيما غمرني به من الإحسان مولانا أمير المؤمنين أبو العباس أحمد وما اتفق لي في أيامه. **الفصل الثاني:** فيما اتفق لي في أيام مولانا أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز وأذكر طرفاً من سيرته الحميدة وآثاره الجميلة وقت تصنيفي هذا الكتاب وهو عام 823 من الهجرة النبوية. **الفصل الثالث:** في مقصود الكتاب من الردّ على دين النصارى في دينهم وثبوت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم بنصّ التوراة والإنجيل وسائر كتب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وبتمامه إن شاء الله تعالى يتم الغرض في تصنيف هذا الكتاب بحول الله تعالى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفّر لنا الكتاب في الفصلين الأولين إفادات تاريخية مهمة جداً عن سيرة السلطان أبي فارس الحفصي وحروبه وآثاره وقد نقل عنه المؤرخون كالزركشي وابن أبي دينار القيرواني وبهذا يكون مصدراً آخر من مصادر العصر الحفصي في هذه الفترة.

والكتاب طبع عدة مرّات، وقد طبع لأول مرة في لندن سنة 1290هـ — وطبع في تونس في مطلع القرن العشرين (دون تاريخ)، وصدرت له طبعة بالعربية مع ترجمة بالفرنسية في مطبعة البريد سنة 1895 ثم تتالت الطبّعات المصرية ومنها طبعة مطبعة التمدّن بعابدين (دون تاريخ) وطبعني سنتي 1904 و1905. وآخر طبّعاته ظهرت أخيراً في لبنان مع ترجمة النصّ العربي إلى اللغة الفرنسية.

أما عناية الأجانب بالكتاب وبصاحبه فنذكر منها عمل جان سبيرو Jean Spiro الذي ترجم الكتاب وأعطاه العنوان التالي : *Présent de l'homme lettré pour refuter les partisans de la croix* 1886. كما نذكر عمل المؤرخ الأسباني م. إيبلازا (M.) Epalza الذي وضع أطروحة دكتوراه حول هذا المفكر وكتابه تحفة الأريب، وقد نشرت الأطروحة - وهي بالأسبانية - سنة 1971 وعنوانها :

Epalza,(M.), *La Tuhfa, autobiografia y polemica islamica contra el cristianismo de `Abdallah al-Taryuman (Fray Anselmo Turmeda)*, 1971, 521pp.

وتتكوّن أطروحة المؤرخ إيبلازا من النصّ العربي للكتاب مع ترجمة للأسبانية ومقدمة في شكل دراسة طويلة تناول فيها على التوالي الجوانب التاريخية والعقائدية والأدبية⁽⁴⁵⁾. كما أنّه تحدّث عن كثرة ما كتب حول كتاب *التحفة* وأشار إلى ترجمته باللغة الكاتالانية كما أشار إلى صدور دراسات مختلفة الطول تخصّه في مجلات وصحف جزائرية كمجلة الأصالة وصحيفة المجاهد⁽⁴⁶⁾.

وعرف التونسيون الكتاب وزادت شعبيّته وكثر تداوله بين الناس وذكر المؤرخ إيبلازا في مقدّمة تحقيقه أنّه اطّلع على أربع وأربعين نسخة مخطوطة منه. ومما يؤكد القيمة الشعبيّة للكتاب أنّ شهرة عبد الله التّرجمان التّصقّت بكتابه المذكور فصار معروفا لدى العامة بـ"سيدي تحفة".

(45) مختصرا للأطروحة أنجزه الأستاذ عبد المجيد الشرفي ونشره في مجلة حوليات الجامعة التّونسية، (سنة 1975)، ص 283-290.

(46) Epalza,(M.), *Deux récits bilingues (arabe et espagnol) de voyageurs vers l'orient qui passent par Tunis (XV et XVIe.s)*, Cahiers de Tunisie, 1978, vol25,n103-104,p36.

توفي عبد الله الترجمان بمدينة تونس سنة 837 هـ/1433م⁽⁴⁷⁾ ودفن داخل باب المنارة في ساحة صغيرة تسبق سوق السراجين وقبره معروف إلى الوقت الحاضر. وفي نطاق التعاون بين بلديتي تونس ومايورقا الأسبانية تم تجديد قبره ووضع بناء صغير تعلوه قبة سنة 1986 وكتب عليه باللغتين العربية والأسبانية والنص العربي هو :

تكتب من بلديتي تونس ومايورقا / تم ترميم قبر / المغفور له عبد الله الترجمان / ابن مدينة مايورقا / مفخرة الدين الإسلامي / تغمد الله برحمته.

هذه لمحة عن اعتناق الأوروبيين الإسلام في مدينة تونس في العهد الحفصي. وليست هذه الظاهرة جديدة عند المسلمين عبر تاريخهم وهناك أمثلة كثيرة تحدثت عنها المصادر ونشير فقط إلى إحداها لأهميتها. فالعهد الموحدى بالمغرب اختصّ بكثرة معتقي الإسلام من الأوروبيين وصارت المسألة ظاهرة بارزة للعيان ومن أبرز معتقي الإسلام في ذلك الوقت ابن الروبرتير القائد العسكري الشهير الذي اعتنق الإسلام منذ عصر المرابطين واستمرّ مع الموحدين، وابن أخت ألفونسو الذي أسلم وتسمّى بأبي زكرياء يحيى وكانت له مكانة اجتماعية هامة في مدينة مكناسة المغربية، والمثالان يستحقان كلّ الدراسة لمن أراد الغوص في مثل هذا الموضوع.

(47) ذكر الباحث محمد محفوظ في كتابه تراجم المؤلفين التونسيين، 1982/1، تاريخين مختلفين لولادة عبد الله الترجمان ولوفاته فقد جعل تاريخ ولادته خلال سنة 758هـ/1357م وجعل تاريخ وفاته خلال سنة 832هـ/1430م.